

الفضائع التي ارتكبتها الشرطة الاستعمارية الفرنسية

بقلم : محمد يوسف

ترجمة : محمد الشريف بن دالي حسين
- معهد الترجمة جامعة الجزائر -

الفظائع التي ارتكبتها الشرطة الاستعمارية الفرنسية

بقلم : محمد يوسف

ترجمة : محمد الشريف بن دالي حسين
- معهد الترجمة جامعة الجزائر -

مقدمة :

إن الجزائر أول أمة تم احتلالها، وآخر أمة أحرزت على استقلالها، في تاريخ المغرب العربي الحديث.

فالبلد الجزائري يتألف من سهول خصبة تمتد على مدى البصر. وعلاوة على ذلك، فإن أراضيه تحتوي على ثروات معدنية واسعة. وكل ذلك دفع الأمم الأجنبية إلى الطمع في احتلال الجزائر. فالفقر الجماعي الذي كان يجتاح فرنسا - آنذاك - قد استحث حكومة شارل العاشر التي كان الشعب غير راض عنها، على أن تقدم على المغامرة الجزائرية. وبعد الغزو، جثم الاستعمار - شيئاً فشيئاً - على امتداد التراب الوطني كله. ولم يكن ذلك أمراً هيناً. ومهما يكن من أمر، فقد تصدى المستبد للقيم الأخلاقية الأساسية التي كان الشعب الجزائري يمتاز بها. فتعرض هذا الشعب بعد أن صعقته قوات الاستعمار الحمقاء والوحشية، لعملية منظمة تتمثل في طمس معالم شخصيته واحتلال إنيته. وجدّ العدو في ذلك حصن ثقافة الشعب الجزائري كما أكب على مراقبة دينه، ابتغاء القضاء عليه قضاء مبرماً. وهكذا حرم الشعب الجزائري المسلم من جميع الحقوق والرتب التي كان من المفروض أن يتمتع بها كل مخلوق آدمي. وأصبح هذا الجزائري عبارة عن شيء من الأشياء التي يملكها الغالب. ومما لا ريب فيه أن احتلال الجزائر لم يتحقق دون أن تكون قد أعدت لذلك خطة محكمة. وتمثلت اللوحة الاستيطانية الأولى في الجندي والمستوطن والمبشر. وكان كل ذلك قد سبق إعداد قانون استعماري نموذجي يكمن في البلديات الممتزجة، ومناطق الجنوب، وقانون الأحوال الشخصية ومرسوم رينييه (Régnier). وخلال أول صليل الأسلحة الذي كان بتاريخ 5 يوليو 1830، ثبتت الحملة العسكرية الفرنسية أقدامها وتوطدت بسيدي فرج وتمكنت بعنفها من أن تطيح بالوصاية التركية على البلاد الجزائرية. وانتقل العدو الذي

استنهض هممه ذلك الانتصار السوري الذي أحرزه خلال الأشهر الأولى، إلى غرب البلاد، للقضاء على مقاومة السكان الملتفين حول قائدهم الأمير عبد القادر الذي لا يزال في عنفوان شبابه. وبعد مقاومة عنيفة دامت سبع عشرة سنة، احتلت فرنسا - البلاد الجزائرية - واعتبرتها، منذ ذلك الوقت مستعمرة لا بد من إعمارها. وبسط الفرنسيون سلطانهم على الجزائر. وامتدت يد الاستعمار إلى جميع أطراف البلاد. فأصبح الأجنبي سيدا في البلاد بعد كل تلك الحوادث العسكرية الناجمة عن الاحتلال، وبعد زوال تلك القيم الأخلاقية الأساسية التي كان الشعب يتحلى بها، استمرت الأمور على تلك الحال إلى أن جاء فاتح نوفمبر 1954. فتحلحل - آنذاك - تكافؤ القوى، وأخذت بنادق الحرية تجلجل في سماء الأوراس بطلقاتها النارية الأولى. وإزاء ذلك كله، هناك اللاتدراك والاضطهاد. ومن ثم كان النزاع، ونشأ عن ذلك، تنظيم الكفاح : فكان كفاحا منظما، هدفه تحرير البلاد. وعانى الشعب الجزائري في سبيل استقلاله آلاما كبيرة. وتعرضت جميع فئاته إلى جرائم منكرة يتحدث عنها محمد يوسف في كتابه «الجزائر في ظل المسيرة النضالية». وارتأينا ترجمة الفصل الخاص بالفظائع التي ارتكبتها الشرطة الاستعمارية الفرنسية حتى تظل تلك الصور ماثلة أمام أعيننا، فنذكر ثمن الحرية ونعمل على النهوض الاقتصادي، حفاظا على استقلالنا السياسي.

«بوسعكم أن تمزقوا جسمي
وأن تجعلوني ألفظ أنفاسي الأخيرة
ولكنكم لن تتمكنوا أبدا من سحق روحي
التي ستظل ترف على فضائحكم، وأنوفكم راغمة»⁽¹⁾

1 - كتابة على حائط زنزانة من زنزانات سجن بربروس. وقد عثر عليها محمد يوسف مؤلف الكتاب عندما زج به في هذا السجن سنة 1952.

الفضائع التي ارتكبتها الشرطة الاستعمارية :

كانت العذابات التي تحملها المناضلون قد أثرت تأثيرا كبيرا في الرأي العام الجزائري وكانت الأساليب التي استخدمتها الشرطة السرية النازية (غستابو) قد أثارت اشمئزاز أوروبا، شعوبا وكنائس ونخبا وشبيبات، وهزت مشاعر الجميع، وارتفعت آنذاك في جميع أنحاء المعمورة أصوات استشاط أصحابها غيظا، تنديدا بالجرائم التي اقترفت في داشو (Dachau) وأورادور - سور - غلان (Oradour-sur-glane). وكان الأدباء ورجال الصحافة في ذلك العهد قد تألفوا، فاستخدموا مواهبهم وآراءهم للتنديد بهذه الفلسفة البربرية الحديثة التي توشك إن لم يتوقها الناس أن تؤدي بالعالم إلى نهايته المؤكدة، ولكن ما أن تقترف هذه الجرائم الشنيعة في بلدان ما وراء البحر حتى يسمح بأن توضع الأمور موضع الشك وتستعمل العبارة المعروفة : "نعم ... ولكن ..."، ويرى البعض أن أنواع التعذيب لم تكن شبيهة بتلك التي لجأت إليها الشرطة السرية النازية في فرنسا.

وكان الفرنسي الذي يعيش في فرنسا نفسها والذي أصابه كل ذلك في الصميم، ينكر التهمة ويبادر إلى التنديد بالفضيحة، فهو الذي كان معنا بالأمر ولكنه هو الذي كان بيت في أمر ترك الاتهام أو إبقائه. ومهما يكن من أمر، فالجزائري مذنب في نظر الفرنسي الذي كان يأبى أن يقر بالحقيقة. ولعل ذلك ناتج عن تعجرفه أو عن شططه في الشعور بالمسؤولية. وهل كان لا بد من نفي الواقعة وإخفائها، بل هل كان لا بد من تخفيف حدتها لنيل رضاه ؟

فكانت عمليات الاعتقال وعمليات التفتيش التي تقوم بها الشرطة في كل مكان وفي وقت دوفا سبب ولا أمر بالتفتيش، تعد شيئا طبيعيا جدا. فمن ياترى تريد الشرطة أن ترعب ؟

ومن المعلوم أن مراقبة المتهم تصبح متواصلة دون وازع تخشى رقبتة. وقد تستمر هذه المراقبة لمدة شهرين كاملين أحيانا. وغالبا ماكان رجال الشرطة يساعدون قاضي التحقيق في أداء مهمته وكان المتهم ينذر أن يردّ على الاستنطاق المزدوج دون أن يكون له الحق في أن يفعل ذلك في حضرة أي محام من المحامين.

فلا أحد يتعجب من أحد ! وكان يزوج بالمعتقلين في سجن بربروس ثم يؤتى بهم ثانية إلى مركز الشرطة بالتواطؤ مع مصلحة السجون ليتعرضوا من جديد لسوء المعاملة. وكان ذلك خروجاً عن الشرعية ! فلم تلتزم الشرطة حدود القانون !

فإن تصرف الشرطة كأنها صاحبة الأمر والنهي، وإن تعتمد الهيئة القضائية عليها وتثق بها، فتلك عادة قائمة بذاتها. وأنه لمن العسير أن يبرهن المرء عكس ذلك. فالقانون والمبادئ والمثل العليا الأخرى لم تكن ههنا بالنسبة للجزائري العربي سوى عبارة عن ملابس سيئة الصنع ولا تناسبه. فالبشرة - ههنا - تحمل محل القانون. وكانت اللغة المستخدمة هي لغة العصا، وكانت العبادة هي عبادة الأسياد والخضوع لهم. وكان الأوروبي يفرض هذه القوانين سواء كان مستوطناً أو جندياً أو قاضياً أو شرطياً. آه...! كم عانينا من الصمت الذي لزمه بعض المثقفين الذين كانوا يرون أنهم من أصل شريف، ومنبت كريم. وكم عانينا من تضامن التوطئ الذين تميزا بهما هؤلاء المستعمرون الذين تحولوا فجأة إلى متعاونين حقيقيين مع النظام القائم.

ونشأ في عصرنا هذا، نوع من الأدب، هو في حقيقة الأمر تعبير مرعب عن المعتقلات والسجون. ومن المؤسف أن يلاحظ المرء وفرة هذا الأدب. ولكن... ألهذا السبب هناك تعذيب وتعذيب ! أيختلف التعذيب باختلاف الإيديولوجيات وأخلاقيات الأدول ومستوى إخلاص الشعوب لأوطانها، وماتتركه الوسائل الإعلامية من آثار ؟ ... وسرعان ماتطورت تقنية وسائل الإقناع، ههنا؛ في أوكار الشرطة. ولم تفتقر هذه الطغمة التي تخصصت في قتل الأبرياء إلى الوسائل الإنسانية. فمقاومة مارسيل ريجيس (Marcel Régis) الجنس السامي، والفظائع التي ارتكبتها عشباري وميليشيا نظام فيشي، ومذابح الهند الصينية، والمضايقات التي سببها مارتينو ديسبلا (Martinaud - Desplat) للسكان، كل هذه الجرائم جعلت مخيلة الشرطة الاستعمارية خصبة. فاعتقال أي شخص، كان يعتبر دائماً بمثابة ضربة حظ، بالنسبة إلى كل من مديرية حراسة التراب الوطني (الفرنسي) وشرطة الاستعلامات العامة. وكان أمثال جانو (Jeannot) وطونيه (Tony) متيقظين على الدوام، وقد جعلوا ضحاياهم قبلة الأنظار. فلم يغفلوا عن أهدافهم التي كانت عبارة عن مهمة شاقة، ورسالة مؤداة على أكمل وجه. وكان "البيكو" منذ البداية معداً نفسياً لتحمل جميع الآلام المعنوية. فكانت الشرطة تيسر له رؤية قريب مغلول البيدين أو جماعة من المناضلين المكبلين بالأصفاد

عبر باب تعمدت فتحه قليلا. وكان الشرطي يستطلع ضحيته ويحدد معامل تأثيرتها، قبل أن يقذف بها في الجحيم. وكان الحديث الأول يتمثل في قذف الشتائم التي تعقبها، على الفور ضربات عديدة. وكانت هذه البداية تمس، دوما، شرف المرء وتفقدته توازنه فيصبح بطريقة عفوية مشدوها، وكأن الصاعقة صعقته !

ثم يشهد المتهم وهو لا يزال مكبلا بالأصفاد، ويداه مقيدتان وراء ظهره، تعذيب والده أو أحد أقاربه. وكان - آنذاك - يشعر بأنه ضيق الذراع، فيرغي ويزيد من الغيظ ! ويود المرء أن يفرّ حتى لا يرى هذه الأعمال الشنيعة. وكانت الشرطة تصيب هدفها لأن ما كان يتبع ذلك من منكرات، يجعل جميع الحلول ممكنة. وكان المشهد يأخذ طابعا مأساويا لأن الشرطة كانت في أغلب الأحيان تلقي القبض على عدد لا يستهان به من الأبرياء الذين تضيق صدورهم، فيشعرون بأنهم زلزلوا زلزالا شديدا. وكل ذلك يجعلهم يتصورون أشياء ويدفعهم إلى اختلاق أمور تنطلق ألسنتهم بالتحدث عنها لأنهم يعلمون علم اليقين أن الوقت الذي يستغرقه التفوه بكل جملة يرجئ التعذيب والتنكيل وكان لا بد أن ينجو المرء من الموت وإن كان ذلك باختلاق أكذوية.

وهاهي الحكمة في ذلك اليوم، تفرج عن المعتقلين لعدم توفر البراهين ولكن بفضل أي ثمن حدث ذلك ؟ كان من بين المفرج عنهم من قضى سنتين في الحبس، ومنهم من قضى ثلاث أو سبع سنوات أحيانا في السجون. وكان ذلك يعتبر توقيفا احتياطيا ! وذلك ما حدث بالفعل للمناضلين المتهمين في قضية زروالي، وهي قضية الاعتداء على الباشاغا آيت علي⁽²⁾. وهناك مناضلون آخرون أدمى التعذيب قلوبهم لأنهم كانوا مورطين في التهمة أكثر من غيرهم. فأصبحوا عبارة عن كتل أشلاء بشرية أو يكادون : ففهم ذوو العاهات (العور، والعرج، ومنحنو الظهر) والمصابون بالأرق، وفيهم مختلو العقول، الخ... وكان المصابون بجروح أكثر من غيرهم، ينقلون سرا بعد عودتهم من التحقيق القضائي، إلى المستشفيات وهم مكرهين على الصمت، خشية أن يردوا إلى مراكز الشرطة. وعلى العموم فإنه كان يتغاضى عن الأعمال الشنيعة التي يقوم بها

2 . نجا الباشاغا آيت علي سنة 1945 من محاولة اعتداء على حياته وقامت بهذه المحاولة وحدة الصدام التي كان يقودها زروالي. وأصيب الباشاغا بجروح خطيرة بعد أن حاول اغتياله سنة 1956 شاب من القصة ينتمي إلى وحدة الصدام التي يقودها ياسف سعدي. ونظمت هذه المحاولة الثانية في النادي الفرنسي . الإسلامي ... تصحيح خطأ شائع : لم يقتل الباشاغا آيت علي سنة 1956. لقد أوى إلى فرنسا سنة 1962 وأدركته فيها المنية بعد أن أقام بها سنوات عديدة (توفي حوالي سنة 1970).

رجال الشرطة والقضاة : فخير القاطن بأفروفييل، قد خلع كتفه، ولن تلازم ذكره القاضي أبدا. ومثل خيتر كمثل كل من عبد الرحمن الساكن بالبروغية الذي شج فكه، والشاب مولود الذي شلت يده عقب تعذيبه بألة "جيجين" الكهربائية. ولكن المؤسف أن يكون الموت بأشكاله المتنوعة، مأل البعض الآخر من الجزائريين : فكان هناك الإعدام بالإغراق أو بالرصاص أو بالتسميم. وكان الموت في جميع الحالات يستتر بـ"الانتحار" أو محاولات الفرار من السجن. ويعقب ذلك، تظاهر الإدارة بالقيام بتحقيق وإجراء تفتيش في البيوت، لتعتبر القضية منتهية.

وكان الجلادون البارعون في مهنتهم، يعملون جميعا في الأماكن المشؤومة الآتية : في دارة "الطيور" الواقعة في جادة سان سانس (Saint-Saens) ودارة سوزيني (Susini) الموجودة بكلوصالومبييه (Clos Salambier) (المقر السابق لقنصلية ألمانيا العامة، حيث سبق لمديرية الأمن الإقليمية أن دربت رجالها على تعذيب الجواسيس الفرنسيين الذين كانوا يقدمون خدماتهم للنازيين) ولم تكن الدارة الثالثة إلا دارة سان جيرمان⁽³⁾ (St Germain) وهي عمارة قديمة، مغربية النمط، جاثمة على مرتفعات العين الزرقاء (فونتين بلو (Fontaine Bleue) ببلكور. وظلت الحقيقة واضحة في إطار الالتزام السياسي. وحقيقة هذه الأحداث السياسية قد عاشها قدور معسكري، فانطبع في أعماق قلبه. وجرائم الشرطة وفظائع القضاة لاتزال آثارها في جسمه مرسومة. لقد أوقفته الشرطة في 14 ماي 1945 على الساعة السادسة والنصف مساء. وكان آنذاك، طالبا - ضابطا بمدرسة شرشال العسكرية وبعد أن غلت يده وكبلت رجلاه، سيق إلى الجزائر العاصمة التي دخلها على الساعة الثامنة والنصف مساء، فألقي به في زنزانة يبلغ ارتفاع الماء فيها ثلاثين سنتيمترا، وذلك بعد أن صدف وجلد من جديد. وكانت تنبعث من جدران تلك الزنزانة رائحة كريهة، وكأن بها من يصرخ ويحشرج ويلفظ أنفاسه. وفي اليوم التالي استنطقه محافظ الشرطة لوفيريدو (Loffrédo) ورجاله. وأخذ رجل من رجال الشرطة كان يرتدي سروالا قصيرا، يلقي الرعب في قلبه، فقال له : "لا يخرج المرء من مكاتب مديرية الأمن الإقليمية إلا ليذهب إلى مثواه الأخير ... اللهم إلا إذا قبل مقترحاتنا ...". وكان للشرطي الذي تلفظ بهذه الكلمات فم يعبر عن فتور همة. أنه فم شخص منحط الأخلاق.

3. دارة (فيلة) سان جيرمان هي الدارة المعروفة باسم "محي الدين".

لقد كانت يدها ترتجفان، وكان يبدو أنهما خلقتا لارتكاب الأخطاء، واقترب الذنوب. ثم طرح معسكري في قاعة التعذيب. وعلقت على الجدار أدوات تتمثل في العصا والحبل والسوط والبكرة. هذه هي آلات وأدوات عمل الجلادين، أولئك المهندسين المتخصصين في فن الشقاء! كانت تلك مرحلة إخضاع المتهم، وتخويله.

وتعرض معسكري لقصف الأسئلة المتواتر بعد أن أعيد إلى المكتب. لقد عذبتة وأزعجته الألفاظ التالية التي كان يسمعهها : مؤامرة ... تمرد ... أمن ... وكان عليه أن يتحدث وأن يذكر أسماء! وكان لا بد أن يلفق الحديث وأن يقرّ بذنوب لم يرتكبها! ولكنه لزم الصمت. فأمر لوفريديو محافظ الشرطة بإخلاء القاعة. وكان الوقت، وقت تبديل المعذبين. فطوق الرهط الجديد من الشرطة "الضحية" التي أوسعت لكما ولطما. ولما صرع معسكري، بادر الجلادون إلى إنعاشه بواسطة شحنة كهربائية، زعزعت جسمه كله. فصحا من غشيته. وأزيد فم الشرطي المشرف على العملية، وكانت يدها متأهبتين للضرب. وكان يضحك ساخرا من ضحيته مستهزئا بها. وهزت الشحنة الكهربائية الجديدة جسم معسكري. وعند منتصف النهار أعيد المنكل به مضرجا بالدماء، ومقيد اليدين والرجلين إلى زنزانة الماء.

وعلى الساعة الثانية بعد الظهر عاد إليه الجلادون ليعذبوه بواسطة أنبوب الماء الذي وضع في فمه لينتفخ بطنه إلى حين إغمائه إغماء تاما. فركله آنذاك رجال الشرطة وجعلوه يلفظ كمية الماء المبتلع باستخدام مسبار خاص. ولما ثاب إلى رشده، أنذروه بأن يقول "الحقيقة"، ولكنه كان دائما يؤكد لهم أنه لا علم له بأي شيء. فأوثقت إذ ذاك يدها وقدماه من جديد بنفس الوثاق، ثم وضعت عليه لوحة موصولة بالتيار الكهربائي إلى جميع أطراف جسمه. وبعد ذلك، طرح المعتقل في زنزانة مكهربة وهناك أوسعه خمسة رجال من رجال الشرطة ضربا ثم استعملوه بمثابة كرة الملاكمة⁽⁴⁾، فكان معسكري ينتقل من شرطي إلى آخر دون أن يلمس الأرض. وما كان بوسعه أن يحتمل هذه الضربات التي كانت تنهال عليه فكان يصرخ ويزعق كالأصم، ظنا منه أن ذلك سيخلصه من آلامه. وأخرسه جلادون أصحاب الأقدام المساح، بوضع كرة من مطاط في فمه ثم ضرب قليلا على جمجمته بأخمص المسدس. وهاهو للمرة الثالثة يكبل بالأصفاد ويطرح في زنزانته إلى أن يحين صباح الغد السادس عشر من شهر ماي.

4 - كرة الملاكمة (Punching-ball) كرة تعلق عموديا للتمرن على الملاكمة (المترجم).

ولما أحضر بين يدي لوفريدو، أمره محافظ الشرطة بأن يقول الحقيقة وأخبره بأنه إن لم يفعل ذلك سينتهي به الأمر إلى المقبرة. فقال له المسؤول الجلاد مزمجا : "إنه من حقنا أن نتصرف بحياة الناس جميعا". وظل معسكري متشبثا برأيه فقال : "إني أؤكد ما سبق أن صرحت به" وإذ ذاك، أمر لوفريدو رجاله بمواصلة التعذيب فطرح في مغطس، معلقا من رجله فانتهوى رأسه وبقي على هذه الحال إلى أن أغمي عليه. وعذب معسكري للمرة الثانية بنفس الطريقة، ولكن هذه المرة، تهيجت أعصاب الشرطة التي راحت تبتكر في فن التعذيب : فأدخل أنبوب الماء في شرح المتهم الذي علق، بعد ذلك، من رجله بواسطة بكرة .. فأصبح الدم ينضح من أنفه وأذنيه. وكانت الدموع تغشي عينيه. ولم يعد للألفاظ التالية التي تتفوه بها الشرطة، نفس الرنين : "لثيم ! سافل ! ... ستبوح إلينا - الآن - بكل ماتعرف !" وكانت الشتائم بصخبها المتزايد قد لعبت برأسه وأبدعت الشرطة على غير عاداتها ... فوضعت على جسده المنكل به، صفيحة قنا لونها بواسطة التيار الكهربائي. ولم يجنبوا أجزاءه المصابة من قبل بجروح من ذلك العذاب ! وأخذوا يدرجون فوق بطنه بعد أن وضعوه على الثرى، وتعرض فيما بعد، لعملية إدخال الزجاجاة (عنق الزجاجاة في الشرج). وبذل لوفريدو، محافظ الشرطة كل ما في وسعه ليضغط بكل ثقله على كتفي معسكري. ولما جاء الليل، طرح الرجل في زنزانة بها يرميل صغيرمليء بالبرازر والنفايات ... وفي صباح اليوم التالي، تكررت ضروب العذابات التي كابدها البارحة. ثم قلع أحد الجلادين أظافر معسكري بواسطة كلابة، فأخذ الدم ينضح من يديه ورجليه. وصارت الصرخات التي يطلقها لاتتوقف.

وكانت الآلام مبرحة، يعجز المرء عن وصفها. وإضافة إلى كل ما سبق، غرزت ابرة في لحمه الحي. فشوهت الضربات وجهه، وصيرت الشحنات الكهربائية جسمه ضاربا إلى البنفسجي. وأصيب عصبه البصري بالقسط. وهكذا أصبح معسكري مهددا بالعمى ! وكان ضعفه شديدا، لاسيما وأن جلاديه لم يقدموا له أي طعام خلال ثلاثة أيام. أما الشرطة، فكانت تعتقد أن تجويعه كفيلا بأن يبطل مقاومته، ويضمن انجراحية الجسم الكاملة.

واستؤنفت المقابلة على انفراد. وعرض لوفريدو على معسكري قائمة بأسماء أربعة أشخاص. وكان على المنكل به أن يتهم الجميع "بالمساهمة في المؤامرة". فكأس اللبن الموجود، ههنا، من شأنها أن تؤثر فيه. وراح لوفريدو يستفسر معسكري عن عائلته :

فسأله عن أعبائها، وعن مركزها الاجتماعي، وحالتها الصحية ... وهكذا استخدمت جميع أساليب المكر والخداع ! وانتهت "فترة الاستراحة". فكشرت الشرطة من جديد عن أنيابها. وكان على معسكري أن يوقع تقريرا مزورا دون أن يطلع عليه. وكان رجال لوفريدو، يهددونه بمسدساتهم ورشيشاتهم، اعتقادا منهم أن هذه الأسلحة ستجعل منه إنسانا "عاقلا". ورفض معسكري توقيع التقرير. فضربه شرطي بمسدسه على رأسه، فشق فروته، وبادر الجميع إلى تضميد الجرح، ومددوا الرجل على الأرض، ليوسعوه، فيما بعد، ضربا بالسوط، وجاء جلاذ آخر، فتناول قدمي معسكري، وبكل ماأوتي من قوة أدخلهما في طست يفور ماؤه.

. وفي الغد، جاء المحافظ تورون (Touron) وهو من شرطة الاستعلامات العامة، ولوفريدو، وهو من مديرية الأمن الاقليمية، وأعادا لمعسكري عملية "المقايضة" التي اقترحت عليه البارحة والمتمثلة في توقيع التقرير مقابل طاس لبن.

ياله من منظر كئيب ! لقد ذكرهما معسكري بشرطي القبول : فيما أن يقرأ هو بنفسه الوثيقة، وإما أن تقرأ له. فوافق قائد الجلادين على ذلك. واطلع الرجل على "الأمر الفظيع"، ورفض التوقيع. فهو لايعرف أي واحد من الأشخاص الذين ذكرهم لوفريدو في تقريره. فأصبح الطالب - الضابط يعذب في حضرة المحافظين. واقترح لوفريدو أن يعذب معسكري تعذيبا مدبرا "تديبرا محكما".

وذهب الشرطي للقيام بهذا العمل، وهو جذلان، ودلع لسان معسكري بواسطة كلابة. فشعر قائد مديرية الأمن الاقليمية بأنه أرضى رغبته، وقال لرجاله : "عدوه إلى الزنزانة. وسنهتم بأمره مساء غد".

وفي مساء ذلك اليوم، لما حان منتصف الليل، أرغم معسكري على الركوب في سياراة من نوع "تراكسيون" ونقل إلى أرض بور، واقعة في برج الكيفان. وفي ذلك المكان، حفر الرجل قبره بينما كان رجال الشرطة الأربعة يتمززون الريسكي. وما أن انتهى من الحفر حتى وضع نفسه في الرمس. فأخرجته الجماعة، وربطته بشجرة. وأخذ رجال الشرطة يلعبون ويمرحون إذ جعلوا منه هدفا لرصاصهم.

- وكان الرصاص ينز حوله. واعتمد على ضروب الرعب الأخيرة التي تمهد السبيل للموت. وصاح أحد من رجال الشرطة على رفاقه : "احترسوا ! لا تقتلوه. فإنه سيسلم الروح بسرعة فائقة، لو فعلتم ذلك! فمن الأفضل أن نغرقه في البحر". وقام نفس الشرطي وبعض الرجال بتنفيذ العملية، وهم يرتدون سراويل قصيرة. غطس ... اختناق ... طفو ... ضحك ... وعلى الساعة الثانية والنصف ليلا، أمضى معسكري التقرير، وهو منهوك القوى، لا يعي ما يفعل. وأعيد إلى مكاتب مديرية الأمن الإقليمية. وهناك، كابد ضروبا أخرى من العذابات، لمدة واحد وعشرين يوما، كان الغرض منها إجباره على الحفاظ على توقيعه ريثما تفتتح الجلسة القضائية. وفي السابع من شهر يونيو، جاء رجال مديرية الأمن الإقليمية بمعسكري إلى المحكمة ليمثل أمام قاضي التحقيق قوطير مانوف (Goutermanoff). وهدد المحافظ لوفريدو، معسكري بالوان من التعذيب تكون أكثر ضراوة ووحشية من غيرها، لو خطر بباله أن ينفي محتوى التقرير. ورجا معسكري قاضي التحقيق أن يأمر بفحصه طبييا. وكان أن عرض عليه القاضي، مساومة ثانية تتمثل في إمضاء التقرير، مقابل المعاينة الطبية، وذهب به الأمر إلى التعهد بنقله إلى إحدى المصحات. وكان هذا كله عبارة عن مكيدة من المكائد العديدة التي عاشها معسكري. وتوقع رجال الشرطة نجاح المحاولة، حينما لاحظوا حالة "المتهم" السيئة. وأقر معسكري ببعض الحقائق. وبعد أن نقل في التاسع يونيو إلى السجن العسكري، فحصه طبيب، أغفل عن قصد، ايضاح آثار الحروق الأخرى، في الشهادة التي حررها والتي لم تتضمن إلا الملاحظة الوحيدة التالية : "جروح خطيرة"، وسيودع المستند في الملف.

وبعد أن حاز على الوثيقة الطبية، حاول معسكري أن يرجع عن كلامه السابق. فأنكر خلال الاستنطاق الثاني، كل ماورد في تقرير الشرطة، من عبارات نسبت إليه، ولكن القاضي هدده بتسليمه من جديد إلى رجال لوفريدو. ثم حان وقت المحاكمة، فانفجر الحقد، واحتدمت العنصرية. ولم يكن لمعسكري محام أو شاهد نفي. وجلس رجال الصحافة وممثل النيابة العامة أمام المتهم، وتهيأوا لمسيرة رغبات الشرطة. فالقاعة التي أصبحت وكأنها تحتضن اجتماعا فاشيا من اجتماعات - كوكو كلوكس - كلان، قد زادت التوتر حدة : فلم يسمح لمعسكري بالحديث عن ضروب العذابات التي كابدتها، كما لم يسمح له بنفي الوقائع المنسوبة إليه. وتلك نعمة عفى عليها الزمن ! ثم ان الحكم السريع والنقوم، يليق بالعربي جيدا. فخمسة عشرة دقيقة تشاور القضاة خلالها في جلستهم السرية، كانت كافية للتصرف بحياة "عربي". وها قد حطموا

مستقبلا : فحكمت المحكمة على قدور معسكري بالإعدام⁽⁵⁾، واعتبرت أعماله مروقا من الوطنية. وأمرت بمصادرة جميع ممتلكاته الحاضرة والمستقبلية، في حين أن بندي قانون الجزاء 341 و 344 اللذين ينصان على الحكم بالإعدام بسبب احتجاز شخص وتعذيبه، لايعنيان الجلادين : ترون ولوفريدو ... ولماذا ؟ .. لقد كان من بين الجلادين، من يزعم أنه رجل إنساني وديمقراطي ! فكل من يرغب في أن يكون جزائريا يصبح في نظرهم إنسانا مخربا. ونحن جميعا، حينئذ، مذنبون آثمون، لأننا نريد أن نعيش أحرارا، شاء ذلك بعض الطفيليين، أصحاب العقول الرجعية، أم أبوا. وكان على أوروبا الاستعمارية أن تكف عن تضليلنا بخرافاتها القديمة المتعلقة بالمقاومة الوحيدة الاتجاه ! فهنا، كانت تكمن جريمة التمرد ! وإنه ماكان بإمكان فرنسا الاستعمارية، من عهد بيجو إلى عهد ديغول، أن تقنعنا بعكس ذلك. ومنذ عهد طويل، أقرت باريس، شرعا، بحقها في الاحتلال. وباريس هذه، قد سترت، زمنا طويلا، عمليات التعذيب والتنكيل والنهب والسلب والاستغلال والتعسف.

فمنذ طلوع فجر الخامس من شهر يوليو 1830 إلى منتصف نهار التاسع عشر من مارس لم يكف مناضلون جزائريون عن ري أرضهم بالدموع والدماء، ليطيحوا، للأبد، بمسلمة الأجنبي السيد والسيد الأجنبي، وهي مسلمة زائفة وقديمة».

وإننا بعد هذا كله ندرك لماذا تحظى الجزائر منذ عشرات السنين بالاهتمام العالمي. فالجزائر التي يعتز بها مواطنوها على اختلاف نزعاتهم، جزائر الكفاح التي تنتزع التعاطف والود. وشجاعة أبنائها، نطل تنتزع الإعجاب العام العالمي.

خاتمة

هذه الجزائر - تتقدم - اليوم بخطى متئدة لتحقيق الأهداف التي حددها رجالها الذين انجبتهم. فالعقل ينظم، والإرادة تقرر، والحرية هي وحدها التي تلهم وتوحي بالقيم والشهامة وحب الوطن. فهي توصي بالسلم. ولذلك لا تتأكد الحرية إلا في السلم أي في الإقرار بالحقوق.

محمد الشريف بن دالي حسين

معهد الترجمة

5 - قدر معسكري : أفرج عنه. ساهم في الكفاح الثوري المسلح منذ طلوع فجره إلى غروب شمس الاستبداد. لا يزال حيا ببرزق، إلى يومنا هذا.